تعريب قبائل الريف*
شذرات أنثروبو- تاريخية

جمال أبرنوص[1]

Résumé

Nous questionnons, dans cet article, le non-dit qui enceint la question de la langue utilisée actuellement au Rif, et y cherchons à comprendre le processus d'arabisation dont quelques tribus rifaines ont fait l'objet et ce, en faisant appel à une approche anthropo-historique. Nous commençons par dévoiler la confusion qui caractérise la thèse d'une arabisation culturelle complète et défendons celle selon laquelle les habitants de la région ont adopté la langue arabe (dont le degré d'impact peut être mesurable d'un point de vue linguistique) sans abandonner les autres facettes de leur culture d'origine, lesquelles ont été conservées ou modifiées partiellement. En nous basant sur une conception complexe du fait anthropologique, nous croyons que l'évolution des identités se fait sur la base de l'adaptation des éléments

* نستعمل لفظ الريف، هنا، بمعناه الجغرافي المعروف (من طنجة إلى مصب نهر ملوية)، كما نستعير، لغايات بحثية، الفصل السائر الذي يقترحه ج.موررير G.Maurer، والذي يقضي بتقسيم الريف الجغرافي إلى ثلاثة مجالات فرعية: الريف الشرقي (بين النكور وملوية) والأوسط (بين النكور وأورينكا) والغربي (من أورينكا إلى طنجة).

[1]- جامعة محمد الأول، وجدة

culturels exogènes à ceux appartenant à la culture d'accueil (endogènes).

Nous tentons de montrer aussi que le processus historique qui a conduit les Rifains à s'arabiser eux-mêmes et à subir l'arabisation est complexe et ne se fait pas indépendamment des régimes culturels et économiques. Nous soutenons l'hypothèse selon laquelle l'arabisation s'est effectuée dans le contexte de l'imprégnation des amazighophones par le système de valeurs de leurs voisins arabophones, notamment en ce qui concerne les interdits gérant les rapports entre les deux sexes. C'est que ces valeurs servent la spécificité de la culture rifaine, laquelle est structurée autour du modèle économique agricole. Nous croyons dans ce sens que l'auto-arabisation résulte du besoin des Rifains de récupérer leur système de valeurs perdu à cause de l'intervention zénète (modèle économique pastoral) lors de deux moments historiques marquants. C'est pour cette raison que les Rifains ont été contraints d'adopter un support linguistique catalyseur ou convenable, à savoir le support arabe.

"ومهما كان من شأن الظرفية والعوامل التي تلف موضوع البحث في الوضع اللغوي أو تقع وراءه، فالظاهر أنه قد يرد في النهاية إلى ما نلمسه من عدم استحضار البعد التاريخي للمشهد اللغوي الحالي بالمغرب على مستوى التعامل العلمي المعتمد هنا وهناك من قبل بعض المحاولات الترويجية الشائعة." (القبلي 2001: 83)

قليلة هي البحوث والدراسات التي قاربت موضوع الجذور التاريخية للوضع اللغوي وما اتصل به من أسئلة الاستعمالات اللغوية وصورها وأشكال تنافسها على مر التاريخ ببلاد المغرب والمغارب. ولعل مردّ ذلك إلى سببين؛ أولهما ندرة المصادر

التي يمكن الاستنارة بها في هذا الباب، فهي أعز مطلبا من الكبريت الأحمر إذا تعلق الأمر بالعصر القديم، وقليلة متفرقة في مصنفات متباينة الاهتمامات عندما ينصرف البحث إلى العصر الوسيط، موزعة، بموجب ذلك، "بين كتب "الأدب الإباضي"، ومصنفات الأنساب، ومعاجم السير، وكتب التراجم، والجغرافيا، وكتب الأخبار، وكتب النوازل... (Meouak 2015 :5).

أما ثاني الأسباب فيتصل بحافزية البحث، إذ لا يرتبط الموضوع، لدواع مؤسسية مركبة، بأجندات المؤسسات الراعية للبحث العلمي، وهي أجندات محكومة بمصالح يزكيها عزوف الدارسين عن الخوض في تاريخ تشكل البنيات السوسيوثقافية المغاربية المختلفة.

في ظل هذا الكفاف البيبليوغرافي سنحاول مقاربة غيض يسير من فيض الأسئلة المطروحة والمفترضة، وسنكتفي بمحاولة رسم صورة مصغرة عن شجون السؤال، من خلال تسليط الضوء عن الملابسات الجيولسانية والأنثروبوتاريخية التي تشكل في حضنها الوضع اللغوي القائم راهنا بمجال الريف، وما أحاط به من البقاع.

التعرب والتعريب والاستعراب: صيغ استدماج اللسان العربي في بيئة ثقافية أمازيغية.

على خلاف الرأي الاختزالي القاضي بخضوع المجال المدروس وغيره من بقاع المغارب لتعريب عرقي أو ثقافي، يبدو أن الأقرب إلى الصواب هو حصول استدماج لسني من قبل ساكنة أصلية Autochtone، مستوياته ثلاثة هي:

التعريب: نعني به، من منطلق بنائه على تضعيف الجذر، ما قامت به المؤسسات والأفراد، من عمليات تدخل واستبدال، قسرا وطوعا، بوعي وإصرار مؤسسي أو بدونه، لصالح توسيع الفضاء الجغرافي الذي يستعمل العربية على حساب الأمازيغية، أو فرضها في مجالات الاستعمال الشفوي، أي فرض العربية على الأهالي، من خلال

الدعوة إلـى استعمالها، أو تثمينها كممتلك رمزي، بإشـاعة كل تمثل دينـي ينظـر إلـى العربية نظرة تقديس.

التعرب: ونقصد بـه، من منطلق بنائـه علـى زيـادة تفيد المطاوعة، استلاب الذات ومبادرتها إلى تعلم العربية واستعمالها بغير قسر سوسيولساني مباشر.

الاستعراب: ونعني بـه مستوى أعلـى من مستويات التعرب، إذ لا يقف فـي حدود الاستلاب اللغوي، ولكنه يتجاوزه إلـى ادعـاء الانتسـاب إلـى الأصـل العربـي (عرقـا أو ثقافة).

والمستويات المذكورة لا تعني بأي حال حصول استلاب ثقـافي تم بموجبـه التخلـي عن الثقافة الأمازيغية الأصلية لفائدة ثقافة عربية وافدة، وهذا اعتقاد شـائع لـدى العامـة والخاصـة، بـل تعنـي استبدال وجـه تعبيري مـن أوجـه التعبير الثقـافي هـو اللغـة (فـي مستويات محددة يمكن قياسها لسانيا)، أما غيره من الوجوه الثقافية فقد حـوفظ عليـه أو تم تعديله على نحو جزئي انطلاقا من قانون التراكب الأنثروبولوجي الذي يفسر تطـور الهويات على أساس تكييف العناصر الثقافية الوافدة مع خصوصية العناصـر الأصـلية وانضيافها إليها، وليس على أساس إلغائها وجَبِّها.

بهـذا المعنـى يستطيع المـرء مـثلا تلمـس تقـارب ثقـافي لافـت يجمـع قبائـل الريـف الأمازيغوفونيـة والعربوفونيـة علـى مستوى مختلـف الأنسـاق الثقافيـة (مطـبخ، ملـبس، معتقدات سحرية، تمثلات دينيـة، مضـامين المـرددات الشـعبية، طـرق وأشـكال التعبيـر الاحتفالي، طقوس العبور، أشكال التنظيم التقليدي، مسلكيات وطبائع...)، بشكل يفـوق ذاك الـذي يجمـع القبائـل العربوفونيـة المـذكورة ونظيراتهـا بالمشـرق العربـي أضـعافا مضـاعفة، بـل وبشـكل يتجـاوز أيضـا التقـارب الموجـود بـين القبائـل الأمازيغوفونيـة المذكورة ونظيراتها بالمجال الطوارقي الأمازيغي.

ينبغي، إذا، ألا ينخدع المرء وهو يسمع لفظ التعرب أو التعريب فيعتقد أن المجال القبلي المعرب قد نزع عنه لبوسه الثقافي الأمازيغي نزعا مطلقا، وارتدى عوضا عنه لباسا عربيا جديدا غير ذي صلة. إن مثل هذا التوصيف تبسيطي واختزالي إلى أقصى الحدود. لقد سارت الأمور، على نحو ما سنرى بعد حين، في اتجاه قريب من فعل الترجمة، بحيث عمد المُعَرَّب-المُتَعَرِّب إلى ترجمة ممتلكاته الثقافية ذات الحامل اللغوي إلى العربية (العامية) محافظا على قدر كبير من عناصر هويته الأصلية، غير ساع إلى تجديدها إلا بمقدار ما تفرضه مستلحقات ثقافية مرتبطة باللغة الوافدة، وأيضا بقوة تحول المعيش وما يفعله قانون التطور الطبيعي في كل الثقافات والهويات.

لنعد إلى مجالنا المدروس كي نعطي المثال تأكيدا لصحة هذه الزعم. ولتكن شواهد التناظر من بنيات وأنساق مختلفة لا يكشفها الحس المشترك، كما يبين الجدول (1).

جدول 1 : ملامح التناظر الثقافي بين المجالين الأمازيغوفوني والعربوفوني

الشكل التعبيري	ملامح التناظر في صيغتيه العربية والأمازيغية
الشعر المغنى	شعر مقطعي-قفوي تهيمن فيه الرباعيات (إيزري-الهايت..)
نظام أصوات اللغة	تشترك التنويعات الأمازيغية والعربية الريفية في: حضور النفث (Le spirantisme) (ث، ذ، ظ..) الاطراد الكثيف للحركة المختلسة (Le schwa)، وامتلاكها صفة الملاءمة (La pertinence) فيهما معا.
طقوس مختلفة	طقوس الاستمطار؛ فرجة باشيخ؛ طقوس العبور (الولادة، العقيقة، الختان، الزواج، الموت..)؛
علوم شعبية	معارف ومهارات زراعية؛ طب شعبي (وصفات، مهارات عملية: جبر الكسور، مداواة

	الاضطرابات النفسية المختلفة..)؛ تمـثلات إثنوإيكولوجيـة (مـرددات المنـزلات الفلاحيـة، تعـابير مثلية..)؛

استبدال اللسان: التاريخ وبنيات الانتظام الاجتماعي.

يؤكد محمد القبلي، الخبير بتاريخ العصر الوسيط، أن النصف الثاني من القرن السادس الهجري (12 الميلادي) قد مثل منعطفا هاما بالنسبة للمسار اللغوي الذي سار فيه المغرب (القبلي 2001: 89)، إذ قام الأمير عبد المومن بن علي الكومي الموحدي، ثم ابنه وحفيده، باستجلاب قبائل عربية اللسان (من بطون بني هلال وبني سليم، وقد اندمج في نسيجها الإثني والإثنوثقافي أمازيغ مستعربون ومعرَّبون ومتعربون)، وتوطينها بمجال المغرب الأقصى، وذلك في سياق استراتيجيات جيوسياسية غايتها توطيد أركان الحكم. وقد اضطلعت القبائل العربوفونية الوافدة بدور كبير في تغيير الخارطة اللسانية للمغرب الأقصى، كما أدى استيطانها في عدد من البقاع الحيوية المرتفعة الكثافة السكانية (دكالة، بلاد الهبط، تامسنا...)، إلى تعرب هذه المجالات وما والاها من المجالات السهلة التي كانت تجمعها بها صلات اقتصادية أو دينية وغيرها.

يعنينا من تواريخ النزوح العربي إلى المغرب ما يصل مجالنا المدروس بالجوار غربا وشرقا، ونعني هنا لزوم إثارة توطين الخليفة الموحدي يعقوب المنصور لقبيلة رياح من بني هلال ببلاد الهبط فيما بين قصر كتامة (القصر الكبير) إلى بسيط أزغار (الناصري 1954: 168-169)، وقيامه بإنزال عرب بني هلال بن عامر بالعرائش (بن زيدان: 71). مثلما نعني أيضا وجوب الحديث عن وصول بني منصور إلى ضفاف ملوية خلال عهد بني مرين، وانتشارهم بمجال قبيلتي يويحيي ومطالسة الحاليتين (غيريلي 2009: 43).

نحن هنا إزاء محاولة تأريخ التواجد العربوفوني بمحيط مجال الريف وأطرافه، أما مسألة توغله بين قبائل المجال فقضية ثانية نثير بصددها ملاحظة مثيرة فحواها وقوع القبائل العربوفونية بالريف الأوسط والغربي في خط طريق القوافل الذي يربط بادس بفاس، سواء ذلك الذي دأب المؤرخون على بيان إحداثياته القبلية، والذي يخترق المجال الفاصل على نحو طولي (أيث يطفت، بني بوفراح، بني عبد الرحمان (تركيست)، صنهاجة السراير..)، أو ذاك الذي أشار إليه الوزان (جزء من أيث يطفت، بني بوفراح، بني جميل، متيوة، بني رزين، بني خالد2..). وهذا أمر يدفعنا إلى تزكية أثر الحركة القافلية في تعريب لسان القبائل، بسبب ارتباطها بأنشطة سوسيومهنية عديدة تحتاج قسرا إلى لغة سيارة أو لينكوا فرانكا Lingua Franca ذات حظوة، أنشطة من قبيل: التأمين والخفارة والتبضع والمقايضة وغيرها.

يمكن أن نضيف إلى تأثير حركة القوافل دافعا آخر يمكن تلمس تأثيره على لسان المنطقة، أو ترجيح تسريعه عملية التعرب ـ التعريب، وهذا الدافع هو استقبال الريف الساحلي، بدءا من سنة 1494م، لأفواج من الموريسكيين الهاربين الذين استقر بهم المقام بقبائل الريف وغمارة ومدينتي شفشاون وتيطاوين (بن عزوز 2004: 106)، ثم احتضانه هجرة ثانية بدءا من 1502م، بعدما أصدرت ملكة قشتالة إيسابيلا الكاثوليكية مرسوما يقضي بطرد الأندلسيين، وقد شكل شمال المغرب عهد ذاك مأوى لعدد من المهاجرين الذين آثروا الاستقرار بقبائل الريف وغمارة (رزوق 1998: 9).

يمكن أن نلحق بما سبق ذكره باعثا ثالثا ذا صلة، وهو العامل الجغرافي الطبيعي المحض، إذ يسجل الناظر إلى القبائل العربوفونية الواقعة بمجال الريف الأوسط أنها تمتلك تضاريس يسهل اختراقها قياسا مع نظيراتها الأمازيغوفونية (سهل سنادة، الواقع بالجزء العربوفوني من قبيلة أيث يطفت، وكذا سهل بني بوفراح، وقبيلة تاركيست،

[2]- يقول الوزان عن جبل بني خالد: يمر الطريق بين بادس وفاس من هذا الجبل (الوزان 2005: 223).

ومدشر حمايد3 (زرقت)). ومثل هذا الكلام ليس كشفا جديدا على أية حال؛ لأنه يقع على حافر الأدبيات الكولونيالية السائرة على ألسن الباحثين، ونعني ثنائية: جبل-أمازيغ/ سهل-عرب، التي تم من خلالها تبرير انحسار الأمازيغية في المجالات الجبلية ببلاد المغارب Le Maghreb.

أحد هؤلاء الذين استبد بهم المنزع الجغرافي المشار إليه هو المستعرب والمستمزغ الفرنسي ج. س. كولان G.S Colin، وذلك في سياق محاولته الكشف عن سر مقاومة الجزيرة الأمازيغية L'ilot berbérophone الغمارية. إذ يقول في هذا الصدد: "تقع الجزيرة البربرفونية،(...)، وسط القبائل الغمارية الحالية تقريبا. بقاء البربرية في هذه المنطقة تحديدا يمكن رده إلى أسباب جغرافية واقتصادية. فهذه المنطقة تتكئ، جنوبا كما هو باد، على الدعامات الشمالية لجبل "تيزيران"، بالجزء الذي يصعب، عمليا، اجتيازه، وتحديدا في الموضع الذي ينتصب فيه هذا الجبل حاجزا أمام الطرق التجارية التي تربط فاس بالبحر المتوسطي دافعا ومجبرا إياها على الانعطاف، شرقا، نحو بادس، وغربا صوب شفشاون وتطوان" (كولان 2016: 89).

المعطيات التاريخية-الجغرافية المثارة هنا لا تشكل غير نزر يسير مما يمكن الاستشهاد به من المادة العلمية التي نحتاجها لإعادة كتابة تاريخ الاستعمالات اللغوية بالمنطقة. من المفيد أيضا إثارة دور الزوايا المحلية والمراكز الحضرية والدينية والتعليمية في مسيرة التعريب - التعرب، إذ لا يمكن بأي حال إغفال "التأثير الكبير الذي مارسته بعض الحواضر والمدن الكبرى: (فاس، وتطوان، ووزان، وشفشاون) سواء في إطار الأنشطة التجارية التي كانت قائمة بينها وبين قبائل المنطقة- مع ما يفرضه النشاط التجاري طبعا من تواصل وتبادل- أو في إطار الحركة العلمية التي عرفتها المنطقة على يد عدد من الفقهاء والطلبة الذين تخرجوا من جامعة القرويين

[3]- يقع هذا المدشر على نفس الهضبة التي تقع عليها مداشر أيث عزا ولمعلمين وأيث عيسى ومراحة (المنتمية إلى قبيلة تاركيست)، وهي هضبة ممتدة ما بين جبل إيزروال شمالا (1472 متر) ودهار تيشوكت في غربا (1863 متر). (الطويل 1979: 11)

بفاس، أو مدارس علمية أخرى سواء بفاس أو شفشاون أو تطوان. وهذا في حد ذاته مؤشر هام على حركة نشيطة من التعريب، كان وراءها فقهاء وصلحاء ومرابطون وشيوخ زوايا" (جحاح 2015: 46). هذا ويبدو مفيدا أيضا النبش في معطيات الحركية السوسيومجالية التي شهدتها المنطقة والناشئة عن الأحداث التاريخية الطارئة (مجاعات، حركة زلزالية، جهاد وحروب...).

غير أن المعطيات التاريخية من نظير ما سلف ذكره لا تقدم، لوحدها، جوابا شافيا عن السؤال المطروح. فهي تعطي الانطباع كما لو أن الأمر يتعلق باستبدال عنصر ثقافي مستقل عن غيره، غير مندغم في إطار نسق إثنوثقافي مركب، أي أنها تشعر الباحث وكأن استبدال لغة بأخرى قد تم بانتقائية مدركة أو غير مُدركة أشبه باستبدال لباس أو طعام أو أي عنصر ثقافي يمكن فصله عن عناصر أخرى دون حصول اختلال.

الأمر ليس على هذا النحو طبعا، واللغات أعقد من أن تساق إلى مصائرها على هذا النحو التبسيطي الساذج؛ لأن لها قدرا من المستلحقات الثقافية التي تسير معها حيث سارت.

سنسعى هنا إلى بيان أوجه التركيب المحيطة بالمسألة، محاولين إعادة رسم عملية التعرب، لا بوصفها استبدالا، بل بوصفها استدماجا لممتلك رمزي جديد متصل ببنية اجتماعية تحتية، ونعني هنا أن عملية استبدال لسان بآخر ليست عملية لسانية صرفة، بل عملية سوسيوثقافية مركبة يتم فيها تشرب بنيات اجتماعية حاملة لمواقف وبنيات وعلاقات جديدة.

يجدر بنا إثارة ملاحظة هامة بهذا الخصوص، هي مطابقة خط الفصل اللساني Ligne d'isoglosse لخط فصل سوسيوثقافي مواز، من علاماته المائزة وجود حد من الاختلاف بين المجالين المتماسين على مستوى عنصر ثقافي آخر، هو امتلاك قبائل

الريف الأوسط والغربي العربوفونية لمستوى "ليبرالية" أعلى قليلا من نظيرتها الأمازيغوفونية، وتحديدا في ما يتعلق بمحاذير التواصل بين الجنسين، وقواعد اشتغال نسق "الحريم"، وما دار في فلكه من تباعد-تقارب صفات جندري الأنوثة والذكورة[4]. وبيانا يمكن أن نثير مثلا سماح النظيمة القيمية للقبائل الريفية العربوفونية (بالريف الأوسط والغربي) باختلاط الجنسين في إطار تقسيم العمل والاحتفال، وامتناع ذلك عند القبائل الأمازيغوفونية.

بهذا المعنى، نميل إلى الاعتقاد أن تعرب القبائل الريفية لم يكن مدفوعا بهاجس لساني فحسب، بل بهاجس أنثروبولوجي- اجتماعي سابق أو مواز، أي أننا أميل إلى اعتناق فكرة تأثر القبائل الواقعة في خطوط التماس مع القبائل العربوفونية بالبنيات الاجتماعية لهذه الأخيرة، وهي البنيات التي تبدو منسجمة مبدئيا مع خصوصية المجتمع الزراعي الذي يفرض حرية علائقية أكبر بين الجنسين.

هذا الزعم تزكيه حجج مختلفة، منها مثلا ما يمكن ملاحظته بخصوص القبائل العربوفونية الواقعة بالريف الشرقي (أيث بويحيي وأولاد ستوت وجزء من قبيلتي: أيث يزناسن وإيبظارسن)؛ حيث ينتفي تطابق خط الفصل الثقافي المذكور مع خط التماس اللساني؛ إذ لا يتلمس المتأمل في نظيمة التواصل بين الجنسين اختلافا مائزا بين أمازيغوفونيي الريف الشرقي وعربوفونييهم. وهكذا تسود المحاذير الصارمة التي تمنع اتصال الجنسين، وتتم هندسة فضاءات الحركة على قاعدة الدوائر المغلقة.

نعني، إذا، أن اللسان العربي لوحده (دون حامل سوسيوثقافي ذي غواية) لم يستطع اختراق المجال الأمازيغوفوني. ولعل ما يؤكد هذا الرأي أن تعريب مجال الريف الشرقي قد تم في سياق توطين ساكنة عربوفونية مهاجرة (نقترح تمييزا تسمية هذه الصيغة بالاستنبات)، بينما تم بصيغة ثانية في مجال الريف الأوسط والغربي نسميها

[4]- خصائص الجنس المحددة اجتماعيا. ونعني هنا وجود اختلاف طفيف في خصائص الأنوثة بين المجالين: العربوفوني والأمازيغوفوني. إذ لا يؤدي خروج المرأة العربوفونية للتسوق الأسبوعي بالمساس بجندرها المائز عكس نظيرتها الأمازيغوفونية.

بقعة الزيت، حيث تعربت الساكنة الأصلية في سياق استدماجها لبنية سوسيوثقافية مركبة تلائم خصوصيتها الإيكولوجية والاقتصادية. ولعل ما يعضد هذا الرأي هو عجز اللسان العربي بالريف الشرقي عن ولوج المجال الأمازيغوفوني المحدق به، رغم طول مقام العربوفونيين بالمنطقة، إذ يعود تشكل بعض القبائل ذات الأصل العربي، أو تلك التي تحسب نفسها كذلك، إلى الحقبة المرينية، ومن هذه القبائل، قبيلة أولاد ستوت الحالية (غيريلي 2009: 265).

توضيحا يمكن تأمل تفاصيل إضافية في الجدول (2).

جدول 2: صيغ تعرب المجال المدروس

المجال	أمثلة للقبائل المعربة	طبيعة النشاط الاقتصادي	درجة السماح باختلاط الجنسين في الأنشطة اليومية والاحتفالية	أثر التعرب كان بصيغة
الريف الأوسط والغربي	بني بوفراح تركيست- بني جميل...	مزارعون مستقرون	Am[5] < Ar	بقعة الزيت
الريف الشرقي	ايبظارسن - أيث بويحيي - أولاد ستوت..	رعاة رحل	Am = Ar	الاستنبات (توطين ساكنة عربوفونية)

حجة ثانية نستقيها من مجال صنهاجة السراير، الذي تعرض لسانه وما يزال لتعرب تدريجي، من علاماته دخول اللفظ العربي (معجما وصرفا وتركيبا) وقيامه مقام اللفظ الأمازيغي في عديد من سياقات التلفظ الاعتيادية، وكذا احتضان المجال

[5] - Am= Amazighophone
Ar = Arabophone

المذكور لشكل تعبيري غنائي عربي اللسان هو "الهايت" يتم غناؤه على نحو مختلط في المناسبات الاحتفالية.

يتعلق الأمر إذا، بعملية تحول ثقافي جزئي شرعت بموجبه قبائل الريف الأوسط والغربي في تشرب بنية ثقافية أكثر "ليبرالية" من بنيتها المحافظة؛ بسبب ملاءمة هذه البنية وانسجامها مع خصوصية المجال الزراعية التي يلائمها اختلاط الجنسين، ولعل ما زاد من تسريع ذلك تلاؤم بنية الوافد الأندلسي مع البنية "اللبرالية" المذكورة. غير أن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن، بقوة المنطق، هو: متى ولماذا احتضنت قبائل الريف الأمازيغوفونية المستقرة نظيمة سوسيوثقافية أقل "ليبرالية" من نظيراتها الزراعية المستقرة بمناطق أخرى بالأطالس الثلاثة: المتوسط والصغير والكبير؟

هو سؤال لا نملك إليه جوابا شافيا، ومسلك بحث يستدعي عدة وعتادا علميا كبيرا لا يسمح به هذا المقال المختصر، لكننا سنصوغ بصدده فرضية أولى يمكن أن ننير بها قدرا من عتمة الموضوع. ومضمون هذه الفرضية هو قوة التأثير الثقافي-القيمي الذي مورس على المنطقة بفعل الحضور الزناتي (ذي الميسم الرعوي) الذي بصم شخصيتها اللغوية والثقافية، في فترتين فارقتين من تاريخ المنطقة: أولاهما سابقة عن مجيء الإسلام، وقد أثارها عدد من الباحثين، أحدهم أ.ف كوتيي E.F Gautier الذي تحدث عن اجتياح زناتي عظيم عرفته المنطقة قسم الكتلة الصنهاجية التي كانت مستقرة بها في فترة سابقة، إلى جزأين: جزء شرقي ظل مستقرا بمنطقة القبائل الجزائرية، وجزء غربي موطنه الأطلس المغربي (Gautier 1927 : 201). أما الفترة الثانية فتعود إلى عهد تنفذ المرينيين والوطاسيين (ذوي الأصول الزناتية) بالمنطقة، ونحن نعلم أن الوطاسيين قد أقاموا بالريف واستقلوا بحكمه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين (الخطيب 1996: 442). كما نعلم أن الغزو الزناتي الذي باشره بنو مرين وبعض الفروع الأخرى من هذه الأسرة الأمازيغية لمجال الريف وما والاه كان آخر نزوح هجروي مؤثر على التركيبة البشرية والثقافية للمنطقة، ساغ

بفضله قول أنجلو غيريلي إن دائرة حركات الهجرة الكبرى إلى جهة الشمال المغربي أضحت مغلقة بعده (غيريلي 2009: 265).

نعني بهذا القول أن ميل القبائل الأمازيغوفونية إلى تشديد صرامة نظيمة قيمها بخصوص الفصل والاختلاط بين الجنسين، كان بسبب تشربها لسمات النظيمة الزناتية التي تشكل معظمها في رحاب مجتمع رعوي. ومن ثم فإن تعرب المنطقة كان بدافع السعي إلى استعادة نظيمة قيمية تم فقدها بقوة الأثر الزناتي (الرعوي)، وهو المسعى الذي اضطر فيه الريفيون إلى اعتماد حامل لغوي محفز أو مساوق، هو الحامل العربي.

خاتمــــة

عرضنا في هذه الورقة تصورا أوليا لما يمكن عده مبحثا في ما وراء تاريخ الاستعمال اللغوي بمجال الريف، وهو مجال بحث بكر مهجور كغيره من مجالات البحث ذات الصلة بأشكال التعبير الجماهيرية. صغنا بداية رأيا في مسألة استدماج ساكنة المجال للغة جديدة دون أن يفقدها ذلك نسغها الثقافي الأمازيغي الأصيل، وهو النسغ الذي تشكل تاريخيا على قاعدة تراكب العناصر الثقافية المتواردة لا على التعويض والاستبدال، ثم انتقلنا بعدئذ إلى محاولة تفسير عملية التعرب-التعريب بعيدا عن التمثل الاختزالي الذي يحصرها في عملية استبدال عنصر ثقافي بآخر، فاستدللنا بعدد من الحجج على رجحان رأينا الذي نرى بموجبه أن عملية التعريب - التعرب قد تمت في سياق تشرب المجال الأمازيغوفوني للنظيمة القيمية التي تميز جيرانه العربوفونيين، وتحديدا في ما يتصل بمحاذير الاتصال بين الجنسين؛ لأنها تتلاءم مع خصوصية المجال الإيكولوجية القائمة على النمط الزراعي.

يبدو مثيرا للاهتمام، ونحن ننهي هذا المبحث، أن نضع التفسير الذي نسوقه لمجريات التعريب - التعرب الذي مس المجال، موضع تجريب في مجالات جغرافية

اتخذت العربية لسانا عوضا عن لغتها الأمازيغية، وأن نجعل من البنيات الثقافية المحايثة للاستعمال اللغوي موضوع درس علمي أشمل وأعمق مما عرضناه في محاور هذه المحاولة البحثية. هو موضوع بحث في الأفق، بمقدوره رفع الغطاء عن مستغلقات الهوية، بكثير من الحذر، لا سيما إذا روعي فيه تسبيق الأفهام على الأحكام، واستدعيت إليه مقولات البحث الإناسي، القريبة من جواهر الاجتماع البشري، والبعيدة عن أعراض السياسة.

لائحة المصادر والمراجع:

بالعربية:

الناصري، الاستقصا، دار الكتاب، 1954.

بن زيدان عبد الرحمان، الإتحاف، مطابع إديال، الدار البيضاء، ط.2.

أنجلو غيريلي، أسلمة وتعريب بربر شمال المغرب، ترجمة عبد العزيز شهبر، منشورات وزارة الثقافة، 2009، الرباط.

الوزان، الحسن. (2005)، وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمان حميدة، ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن عزوز، محمد حكيم. (2004)، المغرب في مواجهة الحملات الصليبية، الطبعة الأولى، الجزء الأول، تطوان.

رزوق، محمد. (1998) الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط. 3، الرباط، منشورات إفريقيا الشرق.

جحاح، محمد. (2015)، الزاوية بين القبيلة والدولة، في التاريخ الاجتماعي والسياسي للزاوية الخمليشية بالريف، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق.

مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1996، بيروت.

جورج، كولان. (2016) لهجة الغماريين البربرية، مقال ضمن كتاب: جرس العشيرة، مقالات كولونيالية عن الريف الإثنوثقافي، ترجمة: جمال أبرنوص، الناظور، مطبعة ووراقة القبس.

القبلي، محمد.(2001)، حول بعض جذور الوضع اللغوي الحالي بالمغرب، المناهل، ع.62-63.

الطويل، أحمد. (1979) حوض تركيست وهوامشه، دراسة إقليمية، بحث لنيل الإجازة في الجغرافية، جامعة محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الجامعية: 1978-1979.

بالفرنسية:

Gautier, E. (1927), Les Siècles obscurs du Maghreb, Paris, éd Payot.

Meouak, M. (2015) La langue berbère au Maghreb médiéval: textes, contextes, analyses, Leiden-Boston, éd Brill.